فاوست

للكاتب الروسي تشيركوف
بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

استيقظ كل من في الدار وإيفان ميها لوفتش في فراشه لا يجد القوة على النهوض ، فيتكئ على وسادة ينفث دخان سجائره وفي نفسه القلق والاضطراب لأنه لا يشعر بالرضا ولا يحس في نفسه بالقناعة ؛ فهو قد برم بحياة تدفعه دائماً إلى أن يسرع في كل ما يعمل صباحاً : في ارتداء ملابسه وترتيب شعره وتناول طعام الافطار ؛ ليطير إلى عمله في المصرف ...

لقد سمع إيفان — وهو في مكانه — زوجته تأمر ابنه : « إذهب فأيقظ أباك ! » واندفع الطفل إلى أبيه : « أبي ، ألا زلت نائماً ؟ » فأجاب الأب في غلظة وجفاء : « لا ، لا ! »

وعلى المائدة جلس إيفان وقد غمره الكسل والفتور ، وأثقلته أفكار سوداء تضطرب في خياله فما استطاع أن يقول شيئاً ولا أن ينظر إلى أحد ؛ فراحت المرأة ترمقه في أسى وحسرة وهي تقول لنفسها : « لعله خسر كل ما معه في الندي فهو لا يجد مالا ! »

لقد دأب إيفان على أن ينطلق إلى عمله في العاشرة من كل صباح ويعود في الرابعة مساء ، وقد أنهكه العمل وأضناه الجوع ، فيجلس إلى غدائه يلتهمه في شراهة ونهم ؛ ثم يدلف إلى حجرة المطالعة فيستلقي على أريكة هناك ويذهب في سبات عميق يغط غطيطا يزعج الأطفال ويبعث في نفوسهم الرعب ؛ وكانت المربية تتخذ من هذا الصوت المنكر أداة تخيف بها الأطفال وتضطرهم أن يركنوا إلى الهدوء والسكون إن هم صاحوا أو تشاجروا ، فتقول لهم : « أتسمعون صوت الدب النائم في الحجرة سأغريه بكم إن لم تمسكوا ... » وينهض الرجل في الثامنة فيصيح بصوته الأجش : « لماذا لم توقظوني ؟ » فتجيب الزوجة في خضوع : « لقد فعلنا مرات ومرات فما زدت على أن قلت : نعم ، نعم ! » ثم هو يجلس إلى نضد يقرأ صحيفته وزوجته كزينيا بافلوفنا تصب الشاي ، وأمها ماريا بيتروفنا في الناحية الأخرى من النضد تداعب طفلا ، وقد هدأ المكان إلا من بعض أوامر يقذف بها الرجل في وجه زوجته المسكينة ... ثم ينطلق إلى الندي يلعب الورق فلا يعود إلا في الثانية بعد نصف الليل ، وقد نام الجميع سوى حماته ماريا تنتظره لدى الباب فتحييه تحية جافة تشيع في جنباتها أنات الألم والحزن ...

ما كانت الزوجة لتنتظر زوجها ؛ وما كانت تألم لغطيطه ، ولا تأسى على غيبته ، أما الحماة فكانت لا تستطيع أن تكتم بعض ما يؤلمها من شذوذ الرجل وقسوته فتندفع إلى الزوجة تسر إليها بحديث تنفس به عن نفسها : « حقاً ، إنه زوج ظريف ؛ إن كل

ما تستمتعين به منه هو قميصه المعلق على المشجب ! »
فتصرخ الزوجة فى وجهها في غضب وغيظ :
« لا يا أماه ، هـذا هو دأب كل زوج ... ! » ثم تدلف إلى حجرة الاستقبال وهى تترنم :
من وراء الأفق أرض جميلة ...

* * *

اعتاد إيڤان وزوجته وأمها أن يستقبلوا الزائرين مرتين كل شهر ؛ وهم جماعة قضوا أعمارهم فى مناصب الحكومة ، فى هدوء الدواوين ، وخمود الوظيفة ؛ لم تصقلهم الحياة ولا حنكتهم التجارب ففيهم الغباء وفيهم الركود ... فكانوا يجلسون إلى إيڤان وزوجته يتحدثون عن حياتهم المنزلية ، وعن أطفالهم ، ثم عن الجو ؛ وماريا تعد الشاي والمربى والكعك ... ثم يتدافعون — وقد شربوا الشاى — إلى المائدة الخضراء يلعبون الورق ويدخنون ريثما تهيئ الزوجة وأمها طعام العشاء ، والخمود يستولى عليهم رويداً رويداً ... ثم ينطلقون جميعاً إلى الطعام والشراب فى صخب ولجب ، وقد استخفهم الطرب ، ودب فيهم النشاط والمرح ، فيجلس إليهم إيڤان يقص قصة زواجه من كزينيا وقد عبثت برأسه الخمر « لقد أحب كل منا صاحبه حباً يكاد ينشق له القلب وأنا ما أزال — حتى الساعة — أذكر لقاءنا فى حديقتهم الجميلة فى ضوء القمر ، فنجلس ساعات فى كن هناك ، وقد نامت عين الرقيب والواشى . لقد كان قلبى يدق دقات عنيفة متوالية ... » وكزينيا على خطوة منه يتصاعد دم الخجل إلى وجنتيها وتشير إليه بطرف العين أن أمسك ، وهو يمضى لا يعنيه ما يبدو على وجهها من سمات الألم والحياء ...

ثم ... ثم ينتهى العشاء ومن بعده الشاى وينسل الزائرون لا يخلفون من ورائهم إلا سحب الدخان منعقدة فى سماء الحجرة وإلا صحاف الطعام وفناجين الشاى وزجاجات الخمر فارغة متناثرة هنا وهناك ، وإلا بقايا الدخان ملقاة في نواحى المكان ؛ ثم يسود الدار سكون عميق وكزينيا على كرسى فى ركن تحس فى مفاصلها ألم الاجهاد والتعب ؛ وأمها تجول فى أرجاء الحجرات تفتح النوافذ وتلتقط بقايا السجائر من أصص الزرع ، غضبى مغيظة : « أما كان يقنعهم أن أثر (الطقاطيق) على المناضد فينصرفون عنها إلى الأصص ؟ » ثم تندفع تنظم ما تشعث ؛ وإيڤان يضطرب بين الحجرات وقد أمضه ما رأى وهو يقول فى غضب : « لقد نامت الدواب على شهر الفولجا ، أما نحن ... » ثم يستلقى على فراشه ينتظر زوجته فى قلق ... وينادیها فى قسوة ، فلا يسمع سوى عويل طفل يرتفع فى الناحية الأخرى وزوجته تهدهده ، وحين ينفد صبره يجذب الغطاء وينطوى إلى نفسه وقد أدار وجهه إلى الحائط ...

وكانوا هم يخرجون إلى دار أحد أصدقائهم مرة أو مرتين فى الشهر ليشهدوا مثل هذه الفوضاء ومثل هذا الاضطراب . . .

* * *

ومرت الأيام جرداء ممحلة ، فبدت الحياة فى عينى كزينيا جافة قاسية لا لذة فيها ولا متعة ؛ مظلمة لا نور فيها ولا سلوة ؛ وسلّط عليها الملل والضيق فانطوت على شعور غريب فيه الضجر والقلق . ماذا

تستطيع أن تفعل وهى فى سجن من دارها وسجن من أولادها ؟ أفتستطيع أن تجد مهرباً مما هى فيه ؟ وترقرقت العبرات فى عينيها ...

واستشعرت الأسى والألم فى نفسها حين بدا لها أن سجنها يكاد يضمها بين جدرانه فيقضقض عظامها ويفرى جلدها . إنها ترى الناس يغدون ويروحون فى نشاط ومرح ، فيهم الأناقة والذكاء والخفة ؛ أما هى . . . أما هى فقد استولى عليها الفتور والخمول ، وبدا عليها التشمث والغباء من طول ما اعتزلت الناس

وجلست الزوجة إلى الشباك وخيالها يحلق فى متاهات لا يجد الهداية ... وارتدت إليها ذكريات الطفولة الجميلة ، وأيامها الباسمة ، وحياتها المشرقة ؛ حين كانت ترى العالم كله يضطرب فى قلبها وتضطرب معه آمال كبار تتراءى لها من وراء الأفق فيها السعادة ... سعادة الحب فتبسم فى رضا واطمئنان ، وهى تنتظر المستقبل الجميل .

ولكن ... ولكن ها هى الحقيقة مرة لذاعة ، إن العالم كله الذى عاش فى قلبها سنين لم يبق منه سوى شارع ضيق قذر قصير ، فى أحد طرفيه دكان البدال وهم له مدينون ، وفى الطرف الآخر الدار حيث تطوى هى أيامها لا تجد إلا الأطفال وصراخ الأطفال ، وعويل الأطفال ، وإلا عملها فى الدار ، وإلا جماعة من العجائز يلعبون الورق بين الحين والحين فى ضجة وضوضاء ، وإلا الزوج العنيد يشاكس زوجته ويذلها فى غلظة وفظاظة ، لا يرعى حقها ولا يعنى بأمرها ؛ ثم زوجة تنفر من زوجها وتضيق به ذرعاً ، وهى لا تستطيع أن تجهر ببعض ما يتسعر فى قلبها فتكتمه على مضض . أما الحب ؛ أما السعادة فى الحب والزواج فخيالات لفتها الأيام لتنشر مكانها ما تكابد فى دار زوجها من هم ونكد ...

واضطرعت فى نفسها خواطر مؤلمة كادت تعصف بعقلها ، غير أن شبحاً بدأ فى الظلام يقترب منها رويداً رويداً يجذبها من أخيلتها ... إنه هو إيفان ميها لوفتش فى قميصه الأبيض جاء يلقى بنفسه على كرسى إلى جانبها ، وراح يتثاءب ويقول : « لقد أكلت طعاماً شهياً ونمت نوماً هادئاً ، ولكن فيم تفكرين ؟ » قالت : « لا شىء ... لقد كنت أفكر ... إن هذه الحياة جافة يا إيفان ! » قال : « أفيكون لك ثلاثة أطفال ثم تزعمين أن حياتك جافة ؟ » قالت : « إنها مملة لأنها على نمط واحد ! » فقال الرجل بغيظ وهو يلوح بيده فى الفضاء كأنما ينحى عنه شيئاً يريد أن يلصق به : « أفتعيشين عمرك مضطربة كئيبة ؟ » ثم انطوى وخلفها إلى أحزانها تبسم فى حسرة ثم تنزو بها نزوات الألم فتجهش إلى البكاء ...

وصاح إيفان - بعد حين - « ما هذا ... ؟ » ثم نادى زوجته يطلب ماء ، غير أن الحماة اندفعت إليه وفى قلبها شهوة الانتقام وهى تصيح : « ما هذا ؟ ما ذا صنعت ؟ ما ذا صنعت ؟ » قال : « لا شىء ، إننى لا أستطيع أن أفهم ابنتك ولا ما تريده ! » قالت وهى تضطرب : « ما ذا ؟ ما ذا صنعت ، ما ذا قلت ؟ » قال : « لا شىء ، إنها

انفجرت ضاحكة على حين بغتة ثم راحت تبكى ! »
قالت : « لا ، أنا لا أصدق ، هذا عبث ، لابد أن تكون جرّحتها ! » قال الرجل فى حدة : « لقد قلتُ إن شيئاً لم يكن ... ! » ثم انطلق ... انطلق إلى الندىّ يلعب الورق ...

وزاغ بصر المرأة فراحت تذرع الأرض وهى تضطرب وفى نفسها الغيظ والغضب ، ثم جلست إلى ابنتها تحدثها : « لقد تخاصمتما ، فلماذا ؟ ماذا فرط منه ؟ » قالت الزوجة : « لا ، لاشىء ! » قالت الأم : « لعله امتهنك وأغضبك ! » قالت الزوجة : « لا » قالت الأم وقد هدأت من ثورتها فبدا الحنان فى رنات صوتها : « ياعزيزتى لا تكتمى عنى شيئاً ، أنا أعرف أنه أنانى ، فلا تثيرى غضبه » قالت الزوجة ومن عينيها تتدفق العبرات : « حقاً ، حقاً ! ثم إنه غبي ! » وثارت ثائرة الأم فقالت فى شدة : « إن امرأة تحدثت عن زوجها هذا الحديث فما بعده سوى الشر المستطير ! » وراحت تدفع عن الزوج فى لباقة وذلاقة : « إن زوجاً يبذ إيفان لم يخلق بعد . أفلا تعتبرين بسواك ؟ إن زوجة كابيتا لينا المسكينة تحمل أثقالها وأثقال زوجها فى صبر وصمت ، ثم هي لا تسب زوجها ولا تحقره . إن بعض ما أنت فيه هو السعادة يابنتى ... ! » غير أنها لم تظفر بكلمة واحدة فانطوت على همها تنتظر الزوج ...

* * *

وعاد إيفان يدق الباب فى عنف ، فقالت ماريا لنفسها وهى تفتح الباب : « لعله سكران ! » ثم قالت تحدثه فى لطف وهى تشير إلى المائدة : « ها هو طعامك » فما أجاب الرجل ، وما ألحت المرأة ... وأخذ إيفان يطوّف مايطوف فى حجرات الدار كأنما يريد أن يُشعر كل من فى الدار أنه السيد الآمر ؛ وبعد لأى دلف إلى حجرة المطالعة ليستلقي على أريكة هناك ، وأرادت ماريا أن يتزل عن رأيه فلا ينام فى حجرة المطالعة فلم تفلح ...

وكان الكلب (نورما) يطمئن إلى إيفان ويهفو نحوه ، لأنه كان يحبوه بعطفه وحنانه ؛ والآن — حين رأى سيده يدخل حجرة المطالعة وحين سمع ما كان بينه وبين ماريا — انطلق إليه فى هدوء يداعبه كأنه يريد أن ينزع عنه بعض ما أحزنه ؛ وراح هو يداعب كلبه فى مرح ونشاط ، ونادت ماريا من خارج الحجرة : « نورما ، نورما ! » ولكن الكلب لم يأبه ؛ وتردد الصوت : « نورما ، نورما ! » ففزع إيفان عن مكانه وأغلق الباب فى شدة وعنف فأسكت الحماة عن النداء ، وذهبت فى انكسار إلى فراشها وهى تحدث نفسها : « أفينام مع الكلب ؟ هذه هى ثالثة الأثافي ! »

* * *

لقد كانت حياة ضنكاً ، فيها الاضطراب والقلق ، وفيها القسوة والشدة ، تشتد قسوتها فى العشرين من الشهر حين يتقاضي إيفان مرتبه الشهرى ويجلس يحسب ديونه وهى تربو على مرتبه ، وهو يرى مصيبته فى امرأتين قيّد هو بهما وهما تسعيان للحرية ولا تصلحان لتدبير شئون الدار ؛ ثم يقلب صفحات دفاتره وهو يقول : « لاضير ، إنهما يريدان

الحرية » فتجيب الزوجة : « وماذا بين الحرية وبين هذا ؟ » فيقول هو : « إن الشيطان يعرف لماذا يعلمونكن الجغرافيا والجبر والحساب وحساب المثلثات والهندسة ! ماذا يفيد كل هذا وأنتن لا تستطعن أن تنظمن حياة رجل ؟ لعلكن تتعلمن هذه العلوم لتطالبن بالحرية فى إصرار وإلحاح ! » فتقول ماريا : « إننا ولا ريب نستطيع أن نوازن بين دخلك وحاجاتنا إن أنت اطمأننت إلى الدار فلم تذهب إلى النديّ » فيقول هو : « وأنى إذن أجد المال ؟ أفأزيفه ؟ » وهكذا يتنازعون بينهم أمرهم ، ويؤنب أحدهم الآخر ثم يستشعرون جميعاً الخزى والعار فى حديثهم ، ثم.. ثم تمر الأيام والخمود يستولى على نفس الزوجة ويدب فيها الفتور والكسل فينمحي من عينيها بريق الغبطة والسرور ، وتبدو وهى فى حركاتها واهنة ضعيفة كأنها فى تشمئها وهزالها عجوز شمطاء تدب إلى القبر وهى ما تزال فى أيام الصبا

على المرء أن يسعى جهده إلى الراحة والاستجمام بعد العمل المضنى ، ليبدأ عملاً جديداً فى قوة وفتوة . وكان إيڤان يرى الاستجمام فى كؤوس من الخمر تذهله عن متاعبه حيناً ثم هو يقول : « يجب أن يطرح الإنسان عن نفسه بعض ما يثقلها ليجد النشاط والقوة » أما كزينيا فكانت لا ترى الراحة إلا فى الملهى وقد حرمته زماناً ، فهى دائماً تطلب إلى زوجها أن يصحبها إليه فينطوى عنها وهو يذكرها بزيارتها للأوبرا فى سانت بطرسبرج حين كانا عروسين منذ سنوات تسع ثم يتركها فى سجنها ليذهب هو إلى النديّ

* * *

وظهرت رواية (فاوست) على مسرح المدينة . فانطلق إيڤان إلى المسرح يحجز له ولزوجته كرسيين ، وارتد يقول وهو باق بالتذكرتين على المنصة وعلى وجهه سمات الغضب : « سنذهب الليلة إلى الملهى ، لنرى (فاوست) ! وصرخت الزوجة في حبور وقد تدفق دم الشباب فى وجنتيها : « فاوست ، فاوست ! »

وانطلقت كزينيا ترتدى ملابسها وتصفف شعرها وإيڤان ينظر إليها وينتقد كل ما تعمل . إنه يريدها جميلة جذابة يفخر بها وبجمالها ، وكانت هي أيضاً تريد أن تبدو أمام الناس خلابة آسرة ثم ... ثم انطلقا جنباً إلى جنب صامتين لا يشعران بالمرح ولا السرور ، وذراعاً فى ذراع ويود كل منهما لو سحب ذراعه من ذراع صاحبه ...

ودلفا معاً إلى بهو المسرح والموسيقى تعزف الألحان الأولى وإيڤان يمشى الخيلاء وإلى جانبه كزينيا مطأطئة ذاهلة كأنها تساق إلى المقصلة ... وأطفئت الأنوار ، ورفعت الأستار ، وبدا فاوست فى ملابس رمادية وقبعة كبيرة ولحية بيضاء طويلة ، يغنى :

عبثاً . عبثاً ما أحاول أن أعثر عليه بطول السهر والكد

وكزينيا فى مكانها جامدة لا تحركها الأغاريد وتشجيها الموسيقى ، ثم بدا ميفستوفليس أحمر قانياً يتلهب ، يعلن أنه يستطيع أن يأتي بكل شيء حتى

الشباب والمال . وتراءى إلى كزينيا اليوم العشرين من الشهر وما فيه من عراك وشجار ، ودوّى فى مسمعيها صوت إيڤان : « الحرية ، الحرية ! » وحين ارتدت إلى ما يمثل أمامها كان فاوست قد خلع لحيته وملابسه ليبدو شاباً أنيقاً جذاباً يبتسم ويغنى :

أيها الشباب ، هات مرحك اللانهائى . . .

ثم هو يقفز فى نشوة وطرب ، والزوجة جالسة تأسى على شبابها المفقود ، ثم زفرت زفرة عميقة وهى ترمق زوجها وقد مال رأسه فى صلف ، وعلى وجهه الحليق الناعم وشاربه المفتول سمات الجد والحزم

وانتهى الفصل الأول فخرجا معاً إلى المقصف وإيڤان يزعجه أن يرى شعر زوجته لم يرتب كما يريد هو ، وأن يخيل إليه أن وجهها ليس طرياً ناعماً كوجوه النساء حوله ، وأن عينيها قد انطفأ ما كان ينبعث منهما من أشعة آسرة ؛ ثم هى فترة خاملة والقسوة من حوله يمرحن فى خفة وطرب

ورجعا فى صمت وكل يعيش فى عالمه هو ، لا يعنيه ما يضطرب فى نفس صاحبه ؛ وكانت الأنوار الكهربائية تنعكس على ثياب السيدات فتزيد البهو رونقاً وجلالاً ، والمكان يعج بأصوات الناس ، وكزينيا ترى فيما حولها أسباب حزنها وألمها ، فلم ترفع بصرها تنرى فى البهو أشياء حرمتها زماناً . ولكنها انطوت على آلام فى نفسها مبرحة وإلى جانبها زوجها لا يسرى عنها بعض ما يضطرب فى خيالها . وحين ابتدأ الفصل الثانى اطمأنت هى إلى ما ترى فنفضت عنها ما يمضها وما يحزنها ، ونسيت الغضب والتهكم والديون و . . . وما ران على حياتها من ألم وضيق ، فبدت روحها صافية طروباً ؛ واندمل جرح فى قلبها نكأته الحياة المرة التى تعيشها

وفى الفصل الثالث طارت خواطر كزينيا بعيداً عما حولها إلى ضوء القمر ، إلى الحديقة الغناء ، إلى أيام الحب والسعادة ... السعادة التى راحت تنمو فى خيالها رويداً رويداً حتى غمرتها إلا غلالة صفيقة من حزن ؛ وهى ترى مرغريت الجميلة الجذابة فى غدائرها الذهبية اللامعة تجثو عند قدمى حبيبها الشاب فاوست تستعطفه فى سذاجة وصفاء ؟ ثم سارت إلى جانبه تحت ضوء القمر الجميل وفى نفسها الخوف والأمل وهى تغنى أغانى الطرب تناجى بها الكواكب اللامعة ، وتنشر أمامها أسرار سعادتها ، والليل هادئ والحديقة ناعسة ، ورنات صوتها العذب الساحر تشق طريقها إلى السماء كأنها تسبيحات عابد يتهجد فى غسق الليل

لقد لمست فتاة المسرح كل قلب فأثارت الشجون وهزت أفئدة الذين خانتهم السعادة فألقت بهم فى قرارة البؤس ، فوجم الجميع وبدا المكان هادئاً . . . واضطربت كزينيا حين رأت مرغريت تمثل دوراً مثلته هى حين تغلغل فى قلبها حب إيڤان

ورن فى جنبات البهو صوت ميفستوفليس يضحك فى تهكم « ها ، ها ، ها : » وفى صوته القسوة والخشونة ، وراع كزينيا أن يجذبها هذا الصوت الأجش من أحلامها فبدت مغيظة محنقة

وإلى جانبها زوجها إيفان يقول فى هدوء : « لا بأس ، لا بأس ! » وألقت السيدة على زوجها نظرة خافتة ثم أرسلت أنة عميقة حين تراءى لها أن الرجل الجالس إلى جانبها كان هو فوست حين كانت هى مرغريت… ثم جاءت الغلطة الأخيرة … الزواج … لقد تزوجت منه لتشيد صرح سعادتها فهدمت حياتها وهناءتها

ودوى هتاف الاستحسان حين أسدلت الأستار ثم رفعت مرة أخرى فإذا فاوست ومرغريت وميفستوفليس يداً فى يد يبتسمون للجمع الحاشد ؛ ثم هم يبددون من رأس كزينيا أخيلة كانت قد سيطرت عليها حين خيل إليها أن ما ترى حقيقة لا مرية فيها

ونادت كزينيا زوجها : « تعال ، يا فانيا ! » ثم انطلقا إلى المقصف يشربان الشاى ويأكلان البرتقال ، وقال إيفان وهو يقدم إلى زوجته برتقالة : « أنا ظمآن ! » وأحس هو أن قلبه قد نفض عنه ما علق به من بغض وكراهية فقال : « أهذه البرتقالة حامضة ؟ » قالت الزوجة فى رقة : « لا ، إنها جميلة حلوة ! » وأكلت الزوجة البرتقالة وهى ترقب الرجال حولها وتحدث نفسها : « ليس فيهم من يشبه زوجى ؛ كلهم يذهبون إلى الندى ، ولكن زوجى خيرهم » ثم قالت لزوجها : « كيف وجدت مرغريت ، يا فانيا ؟ » قال : « لا بأس ، ولكن ألمافوستر تفوقها » قالت : « أفسمعت ألما ؟ » قال : « أفلا تذكرين ؟ لقد سمعناها سوياً فى سانت بطرسبرج » قالت : « لقد كان ذلك منذ أمد بعيد » قال : « طبعاً ، لقد رأيتها مراراً ، وأستطيع أن أراها مرات كثيرة ، إن الحياة تنعكس كما لو كانت فى مرآة » ثم انحنى يهمس فى أذن زوجته فى رقة وعطف : « أفتذكرين . . . هناك فى الحديقة ! »

وشاع الخجل فى وجه الزوجة حين ذكرت كزينيا وإيفان حبيبين يتلاقيان على ميعاد فى حديقة الدار ثم همست فى أذن زوجها : « كأنه حلم ! » وجاء صديق يحييهما : « كيف حالكما ؟ » فأجابه الزوج : « إننا لا نجد ما يحزننا ، فالحمد لله ! وأنت ؟ » قال الصديق : « لا بأس ، شكراً لك ، إنى أرى كزينيا تبدو أنيقة جميلة » فملأها الغرور والكبرياء ثم قالت : « عجيب أن أسمع منك هذا وأنا أرى أننى أفقد جمالى رويداً رويداً » وردد إيفان بصره فى زوجته وهو يحدث نفسه : « حقاً إنها جميلة جذابة » . ثم قال فى كبرياء وصلف : « إن فوق مكتبى رسماً لها حين كنا خطيبين أفرأيته ؟ لقد كانت أجمل من مرغريت ! »

وفى الفصل الأخير اضطربت فى رأس إيفان خواطر : لقد تراءى له أن زوجته ستلقى ما لقيت مرغريت فتدفقت الشفقة والرحمة فى قلبه … لقد كان هو فاوست فى وقت ما وكانت هى مرغريت . أما الآن ، أما الآن …

* * *

الدار وهى تبدو فى عينيه سجناً مظلماً ؛ والأرض الحجرية ؛ والقش المتراكم فوق السقف ؛ والمرأة المسكينة التى تمس القسوة والفظاظة فى زوجها فتخضع وتستكين وهى لا تستطيع أن ترد عن نفسها بعض ما يغضبها ؛ ثم الماضى الجميل وقد

أترعت أيامه باللذاذات والسعادة ؛ كل أولئك ارتد في خيال إيفان فجأة فأن أنة كادت تتقطع لها نياط قلبه ، ثم نظر إلى زوجته فرآها واجمة حزينة والعبرات تترقرق في محاجرها فآلمه ما رأى واستقر في نفسه أنه هو الجاني . وعادت إليه أول ذكريات حبه حين جلس إلى التي أحب يترنم وقد نشر الظلام مسوحه على الحديقة في وسط هذا العالم الصاخب ...

ومن حولها البلابل تسجع والسماء صافية

وغادرا الملهى وهما يحسان أن حملا ثقيلا قد انحط عن قلبيهما فعادا حبيبين كما كانا منذ سنوات وسنوات ... وطارا إلى الدار وإيفان يطوق زوجته بذراعه كأنه يخشى أن يفقدها ، وهي تخفي وجهها في فراء معطفها وعيناها تلمعان من بين الفراء الكثيف والقبعة البيضاء الكبيرة ... واندفع يجول في أنحاء الدار مرحاً مسروراً وهو يغني :

دعيني أحدق في هذا الوجه الذي أمامي ...

فقالت ماريا : « كل ثم حدق كيف شئت ! »

وجلس الثلاثة يتناولون الشاي ويتحدثون في هدوء واطمئنان وإيفان يستشعر في نفسه السرور واللذة ، ويحدق في زوجته وقد أبدلت ثياباً بثياب فبدت في صورة ملائكية رائعة جذابة ... ثم انطلقت إلى أولادها تنظر إليهم — وهم نيام — في حنان وشفقة وقد خيل إليها أن هؤلاء هم الملائكة الصغار الذين حملوا روح مرغريت إلى جنة الخلد . ودلف إليها إيفان فبدا له أنه يقف بإزاء فتاته الأولى حين كان قلبه يتمنى أن تكون له ... له وحده ؛

فقال : « إنك تشبهين مرغريت في سجنها » وغضت كزينيا من بصرها وقد ابتسم قلبها لأن صدى صوت أيام الشباب الجميلة رن في أرجائه ؛ ثم راح يودعها وهو يقبلها : « نعمت بنوم هادئ يا مرغريت » فقالت هي في حياء : « حرستك العناية الإلهية يا فوست ! »

وانطلق إيفان إلى حجرة نومه يخلع ملابسه في بطء وتلكؤ وهو يغني :

لكم السعادة يامن تعيشون في رضى وقناعة ... !

كامل محمود حبيب

(١) خالتي وقصص أخرى

(٢) وكيل البريد وقصص أخرى

مجموعتان من أقاصيص رابندرانات طاغور

ترجمة عبد اللطيف النشار

(٣) جنة فرعون وقصائد أخرى

(٤) نار موسى وقصائد أخرى

ديوانان من شعر عبد اللطيف النشار

(٥) الاسكندر

رواية تاريخية عن حياة الفاتح الكبير

ترجمة عبد اللطيف النشار

ثمن هذه الكتب الخمسة عشرة قروش بما في ذلك أجرة البريد

وتطلب بالبريد من صاحبها بعنوانه :

١٨ شارع الابعادية بمحرم بك بالاسكندرية